أشكال التضامن الاجتماعي

–التويزة نموذجا–

د.لمياء مرتاض– نفوسي

جامعة مستغانم–الجزائر

– **الملخص:**

لطالما احتل التضامن الاجتماعي مكانة لا يستهان بها في المجتمعات المحلية. فكانت له أشكال مختلفة تُجسد من خلال ممارسات وطقوس خاصة بكل جماعة اجتماعية.

وبفعل النمو الحضري من جهة والتصنيع الذي عرفته كل المجتمعات من جهة أخرى، فقد قضي على البنى التقليدية فيها سيما في المجتمعات العربية. وبذلك، كل تلك الطقوس والعادات والممارسات التي كانت تصاحب أشكال التضامن الاجتماعي والتي كانت تمنح للجماعة الاجتماعية لحمة وتماسكا تكاد تختفي بشكل تام.

في هذه الدراسة، سنسلط الضوء على شكل من أشكال التضامن الاجتماعي كان معمول به لزمن طويل في الجزائر ألا وهو "التويزة" لنبين أسباب اتباعها وفي ذات الوقت أسباب زوالها.

–**الكلمات المفتاحية:** التويزة–التضامن الاجتماعي–القيم– الوعي الاجتماعي

– **التقنيات المستخدمة:** الملاحظة–المقابلة

Forms of social solidarity
Touisa as a model

Summary:

Social Solidarity occupied a significant position in the local communities. It took various forms embody through practices and ritual specific to each social group.

And by urban growth on the one hand and manufacturing who known all communities on the other hand, it has eliminated the traditional structures especially in Arab societies.

In doing so, all those rituals, customs and practices that were associated with forms of social solidarity, which was granted social group meat and coherent disappear almost completely .

In this study, we will shed light on a form of social solidarity was in place for a long time in Algeria, namely "touisa" to show the reasons to follow at the same time the causes of its demise.

- **Keyworks : Touisa- Social Solidarity-Values-Social consciousness**
- **The techniques used** : Observation-Interview

مقدمة:

حاول المفكرون منذ القديم إعطاء تفسير للظواهر الطبيعية والاجتماعية، على اختلافها. فكانت النظريات الأولى –التي حاولت فهم المجتمع– تعطي تفسيرا شموليا للظواهر الاجتماعية.

وحاول المفكرون –كل حسب تصوره– أن يفهم المجتمع، واقعه، تطوره والآليات التي تتحكم فيهف. كان البعض منهم يولي أهمية كبرى للمجتمع، وركز البعض الآخر على دور الأفراد، في حين أكد آخرون على العلاقة الموجودة بين الأفراد والجماعة ليتساءلون عن كيفية نشوء مجتمع انطلاقا من مجموعة من الأفراد.

ونحاول في هذا المقال، توضيح النقاط التالية :

– إسهام الفكر الدوركايمي في علم الاجتماع

–كيفية فهم دوركايم للمجتمعات

– تقديم دراسة عن "**التويزة**" كظاهرة اجتماعية في المجتمع الجزائري

وللإجابة عن التساؤل: كيف نفهم المجتمع؟ يجيب Durkheim من خلال تحديده لشكلين اثنين من التضامن وهما :

التضامن الميكانيكي **(solidarité mécanique)** والتضامن العضوي **(solidarité organique)**.

وقبل ذلك، سنعطي نبذة عن الفكر الدوركايمي وكيفية فهمه للظواهر الاجتماعية.

تأثر Durkheim بكل من Montesquieu وSaint-Simon وComte. كان يهدف إلى بناء علم مستقل يهتم بالمجتمعات الإنسانية: **السوسيولوجيا**.

بالنسبة له، "لا تعتبر الإتنولوجيا، الاقتصاد، الجغرافيا، التاريخ والديموغرافيا إلا أشكالا خاصة لعلم الاجتماع الذي يجب توحيده. يتعلق الأمر بالسوسيولوجيا التي لها مخطط على ثلاثة مستويات :

– المورفولوجيا الاجتماعية : هي من جهة دراسة القاعدة الجغرافية للشعوب في علاقاتها مع التنظيم الاجتماعي. ومن جهة أخرى هي دراسة السكان، الكثافة السكانية وتواجدها في الأقاليم المختلفة.

– الفيزيولوجيا الاجتماعية : يتعلق الأمر هنا بالأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية وهي مجال علم الاجتماع الديني، الأخلاقي (العائلي والتربوي)، علم الاجتماع القانوني، علم الاجتماع الاقتصادي، علم اجتماع الفن...الخ يستثمر هنا كل الحقل الاجتماعي.

– علم الاجتماع العام : وهو الهدف الفلسفي للعلم، التركيب العام لتاريخ المجتمعات.

ومن أجل ذلك صرح Durkheim بأن "عمل التحليل يمثل العمل الأكثر استعجالا لعلم الاجتماع".[1]

كما نجده يؤكد على فكرة مفادها أن الظواهر الاجتماعية يجب أن تؤخذ على أنها "أشياء"، بمعنى أنه يتوجب على عالم الاجتماع أن يتحلى بالموضوعية عند دراسته

1- Coordonné par Philippe Cabin et Jean-François Dortier, **La sociologie, histoire et idées**, France, Editions Sciences Humaines, 2000, p.46

للظواهر الاجتماعية وأن يبتعد عن الذاتية وعن الأحكام المسبقة التي ستؤثر على عمله وتحليله للظاهرة المدروسة.

ثم يضيف أنه **لفهم المجتمع**، لا يجب فقط دراسة الوسائل التي من خلالها تنتشر المعايير، "بل يجب دراسة مصدر هذه المعايير التي تمثل خاصية كل مجتمع، إذ لا يجب الاهتمام بأحاسيس ومشاعر الأفراد، ولكن الاهتمام بما يفرض عليهم، بمعنى دراسة المؤسسات التي هي ظواهر يمكن دراستها بطريقة موضوعية حيث يعيش الأفراد بهذه المؤسسات ولديهم تمثل خاص اتجاهها".[1]

ولا يمكن فهم هذه المؤسسات عبر علم النفس، بل عبر علم الاجتماع. ولا ينتهي عمله في البحث عن تأسيس علم اجتماع كعلم، بل نجده قلقا حول نشأة المجتمع الصناعي وما انجر عن ذلك من تغيرات.

كما يُعتبر Durkheim "وضعيا بحيث يرفض كل ما لا يمكن ملاحظته".[2]

فهو ينطلق من فكرة أن العلم هو دراسة العلاقات بين ظواهر يمكن ملاحظتها. فعلى سبيل المثال، في كتابه الشهير "الانتحار"، وضع فرضية وجود علاقة بين المحيط الاجتماعي وظاهرة الانتحار.

فهو يدرس السياق الديني، العائلي، السياسي والاقتصادي ليبين العلاقة القائمة بين هذه السياقات لتؤثر على حدة الانتحار. وهكذا، "لم يهتم فقط بإنشاء علم الاجتماع كعلم، لكنه اهتم كذلك بظهور المجتمع الصناعي، اختفاء الأطر الاجتماعية القديمة وأزمة القيم والمعتقدات الجماعية التي ظهرت.

في كتابه "حول تقسيم العمل الاجتماعي"، يحلل المرور من مجتمع إلى آخر بحيث يتميز المجتمع القديم بما يسميه بالتضامن الميكانيكي."[3]

1- Coordonné par Philippe Cabin et Jean-François Dortier, op.cit., p.48

2- Raymond Boudon, **Etudes sur les sociologues classiques**, Paris, Presses Universitaires de France, 1998, p.94

3-Coordonné par Philippe Cabin et Jean-François Dortier, op.cit., p.49

فعلى هذا المستوى، يتمثل **تقسيم العمل الاجتماعي** في التخصص في العمل من خلال جماعات ويؤدي إلى نشأة المهن. في المجتمعات التي تتبنى **التضامن الميكانيكي** تكون المهن غير متطورة.

في هذا النمط الاجتماعي، يتعلق الأمر "**بالتلاحم الاجتماعي** الذي هي نتاج نوع من تطابق كل الضمائر الفردية لنمط مشترك الذي ما هو إلا النمط النفسي للمجتمع المعني".[1]

في المجتمعات المعاصرة –حيث يتطور تقسيم العمل– تتجلى وظيفته في **الإدماج**، حيث "يعتبر المصدر الأساسي للتضامن الاجتماعي نظرا لطابعه الأخلاقي، لأن الحاجة إلى النظام والانسجام والتضامن الاجتماعي هي حاجات أخلاقية".[2]

ففي هذه الحالة، "يتداخل الضمير الفردي مع الضمير الجمعي الذي مصدره هو التشابه، فيربط الفرد مباشرة بالمجتمع".[3]

ويعتبر هذا التشابه شرطا ضروريا للوصول إلى التلاحم. فالتمايز غير وارد في هذا النمط من التضامن، إذ الفرد مرتبط مباشرة بالمجتمع وليس ببنياته ويتبنى معتقدات جماعية مشتركة حيث يسود الضمير الجمعي، ويحرك تصرفات الأفراد، ولا يمكن للأخيرة أن تكون فردانية، كما لا يمكن التحرك إلا في إطار هذا الضمير الجمعي الذي يحدد للأفراد نسقا من القيم التي يجب الامتثال لها.

ويقابل هذا التضامن الميكانيكي، ما يسميه Durkheim **بالتضامن العضوي** يكون فيه التماسك مبنيا على اختلاف المتناقضات التي تتكامل فيما بينها.

فكلما اختلف أفراد جماعة ما، كلما كانوا بحاجة إلى بعضهم البعض.

1-Georges Gurvitch, **La vocation actuelle de la sociologie**, France, PUF, 4eme édition, 1968, p.21
2-José A. Prades, **Durkheim,** France, PUF, 1990, p.41
3- Ibid., p.39

ويؤدي **التخصص في العمل** شيئا فشيئا إلى زوال الضمير الجمعي وظهور الفردانية. كما يضيف قائلا "حدثت تغيرات عميقة في وقت قصير في بنيات مجتمعاتنا، انجرّ عن ذلك أن الأخلاق التي كانت ترتبط بالنمط الاجتماعي القديم اضمحلت بدون أن تتطور الأخرى في ضمائرنا. أصبح إيماننا مشوّشا وتحرّر الحكم الفردي عن الحكم الجماعي".[1]

في هذا النوع من المجتمع، يرتبط الفرد بالمجتمع سيما لارتباطه بالمؤسسات الموجودة فيه، حيث ينتمي الأفراد إلى جماعات فرعية الذين تربطهم علاقات محددة. كما أن الفردانية تنمو وتتزايد باستمرار. لم يعد الضمير الجمعي هو الذي يحرك تصرفات الأفراد الذين أصبحوا متباينين بفعل تقسيم العمل، وتتحرر الضمائر الفردية عن الأخلاق وقيم المجتمع.

شهدت المجتمعات الصناعية تغيرات كثيرة على عدة مستويات ولعل أخطرها هو على مستوى الأخلاق، حيث بدأت تعيش أزمة قيم بفعل تحرر الأفراد والضمائر الفردية عن الضمير الجمعي وعن قيم الجماعة.

لماذا التضامن مهمّ في حياة الأفراد؟ وما هي وظيفته الرمزية؟

فبالتأكيد أن **التضامن** يلعب دورا مهما في حياة الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة ما، لأن روابط عديدة تمكنهم من التعاون بينهم، من تقديم الخدمة لبعضهم البعض وبالمجان.

فهنالك أنشطة متعددة بينهم ترتفع عن الماديات لما لها من دلالة ورمزية في حياتهم التي يتقاسمون فيها مجموعة من القيم لتكوّن نسقا يُمتثل له ويتبناه الأفراد حتى يتم التلاحم الاجتماعي، "فتخضع سيرورة التضامن إلى مبادئ التكرار(répétition)،

1- Georges Gurvitch, op.cit., p.211

الاندماج وإعادة الإنتاج. يتطلب التكرار تعلم إعادة نشاطات لها دلالة حينما يطلب أحدهم المساعدة."[1]

لكل فرد مهمة تلبية نداء المحتاج، كل واحد حسب إمكانياته.

و"يتعلق **الاندماج** بدلالة النشاطات التضامنية. وشيئا فشيئا، تتجذر هذه الدلالات لتتحول إلى رمز"[2]، أي ما يمكن أن ترمز له النشاطات المختلفة المؤداة ضمن عملية التضامن بالنسبة للفرد أو الجماعة على حد سواء.

وفي الأخير، "إعادة إنتاج النشاطات التي تؤدَّى ضمن عملية التضامن تصبح تلقائية كلما استدعت الحاجة إلى ذلك".[3]

فكلما طلب أحد أفراد الجماعة المساعدة مهما كانت طبيعتها، تسارعت الجماعة إلى تلبية حاجته كل حسب طاقته وقدرته، وبدون التفكير في الجهد الذي سيبدل من أجل ذلك ولا المال الذي سينفق ولا الوقت الذي سيُهدر.

فالتضامن عملية تلقائية يلجا إليها الأفراد كلما كانت الضرورة ملحة من طرف فرد ما ينتمي إلى تلك الجماعة.

وبذلك حاول Durkheim أن يوضح طبيعة العلاقة الموجودة بين الأفراد التي تؤدي إلى تكوين المجتمعات.

ومن هذا المنطلق، يمكن فهم بعض الممارسات الاجتماعية في المجتمع الجزائري وبالتحديد ظاهرة **التويزة**.

- **ظاهرة التويزة** :

نحاول من خلال هذه الدراسة، الإجابة عن التساؤلات التالية: ماذا تعني التويزة؟ ما هي النشاطات التي كانت تؤدَّى من خلالها أو ما هي مظاهرها؟

1- Raymond Chappuis, **La solidarité**, France, PUF, 1999, p.56
2- Ibid, p.57
3- Ibid

ما هي أبعداها؟

وهل مازالت قائمة إلى يومنا هذا؟ ولماذا؟

تُعتَبَر **التويزة** مظهرا من مظاهر التضامن الاجتماعي في المجتمعات التقليدية، يتعاون فيها الأفراد دوريا لتقديم خدمة لفرد من أفراد الجماعة التي ينتمون إليها وبشكل مجاني، مما يؤدي إلى خلق ذلك الشعور بالانتماء إلى هذه المجموعة وترسيخ الهوية.

وآنذاك، يدركون حقيقة أن "الآخرين يتعرّفون على الفرد من خلال هذا التشابه والاستمرارية."[1]

يسهم كل فرد حسب قدرته المالية أو الجسدية ليتمّ ذلك النشاط، وهو عادة مرفوق بمجموعة من الطقوس الهدف منها ترسيخ وإعادة إنتاج نسق القيم الموجود في تلك المجتمعات، مما يرسخ علاقة الانتماء إلى الجماعة التي تعبّر عن هوية الأفراد، بمعنى أن هؤلاء يدركون تماثلهم ويضمنون استمرارية هذا النسق.

وعن مدلول هذا المصطلح، لم يُهتد إلى معناه فلعله من أصول أمازيغية، كمايشير د.عبد الملك مرتاض إلا أنه "قد يكون مشتقا من "التوة" التي هي ساعة من الزمان، كما يمكن أن يكون آتيا من لفظ التو الوارد في الاستعمال العربي القديم بمعنى الفارغ من أشغال الدنيا والآخرة. فكأن التويزة عمل إضافي جماعي خارج النشاط اليومي ينهض به طائفة من الأفراد لفائدة شخص واحد ويكون بالمجان".[2]

لمن تُقَدَّم التويزة ؟

1- سوزان السعيد يوسف، **التراث الشعبي والهوية**، بيروت، المؤتمر الثاني للثقافة الشعبية اللبنانية-العربية، 1999، ص-ص991-1019.

2- عبد الملك مرتاض، **التويزة وأبعادها الاجتماعية في الريف الجزائري**، نفس المرجع السابق، ص-ص1065-1097.

باعتبار التويزة نشاطا يتم كلما أحست الجماعة الريفية أن فردا ما محتاج إلى مساعدة ما، فإن هذا الفرد "العاجز يقتضي ألا يكون قويا قادرا على إنجاز ما يكفل له العيش الهني بدون تدخل خارجي من الجماعة التي يعايشها.

أما الفقير، فهو الفرد الذي يكون في العادة محلا لعطف الجماعة المحلية التي تقدم إليه بعض ما يفتقر إليه من خدمات و إنفاقات.

وفي الأخير، يُعتبر الأثير ذلك الرجل المفضال المكرم الشيخ الموقر حافظ القرآن الكريم، المتفقّه في الدين مؤثر على سوائه، وإذا العالم (أي كل شخص ألمّ بعمق أو بغير عمق بالفقه والتفسير وبعض العربية وآدابها وبلاغتها) مبجَّل إلى منزلة قد تبلغ التقديس، وإمّا أن يكون معلما في القرية. فمثل هذا الصنف من الناس هو الذي كان الأثير الأول بالتويزة، فتقوم له الجماعة بالتويزة من خلالها تقدَّم له خدمة هو بحاجة إليها".[1]

وهنا السؤال يطرح نفسه: ما هي النشاطات الخاصة بالتويزة ؟ وما هي الخاصة بالذكور وتلك الخاصة بالإناث؟

باعتبار التويزة شكلا من أشكال التضامن الاجتماعي، فهي تشمل مجموعة من النشاطات تُؤدّى لفائدة شخص أو جماعة، كما أنها تعكس طبيعة تقسيم العمل في المجتمع المحلي. وتنقسم من حيث مضمونها إلى مجموعة من النشاطات تؤدى دوريا وموسميا من طرف الذكور والإناث.

فهنالك نشاطات خاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث.

1- التويزة الرجالية :

تتمثل في مجمل النشاطات التي كان يؤديها الرجال لتطلبها الجهد العضلي. وتتمثل مظاهرها في النشاطات التالية :

1- نفس المرجع السابق.

– بناء المساجد:

هذه الظاهرة قديمة عرفها العرب منذ القديم "وكان أول إنجاز جماعي لمؤسسة دينية في الإسلام هو بناء مسجد قباء."[1] ويتم الاتفاق على بناء مسجد في الجزائر من خلال التويزة بتطوع من الجماعة إما في البناء وإما في ترميم المبنى في يوم معين من الأسبوع. فيجتمع أهل القرية في مشهد تمتزج فيه التقاليد الفلكلورية بالمعتقدات الدينية.

ويقول عبد الملك مرتاض عند وصفه لهذا النشاط الجماعي كما كان يُنفَّذ في وقت ما : "فيأتون بفؤوسهم ومجارفهم ومعها دوابهم. فمنهم من تراه يكسر الأساس ومنهم من تراه يجترف الحراب ومنهم من تراه ينقل الحجر على دابته أو يجتليه على كاهله أو بين يديه، ومنهم من تراه يستقي الماء ليعجن به التراب والجبس ولم يكن الإسمنت موجودا آنذاك، ومنهم من تشاهده يجلب الخشب أو الأعمدة ونحو ذلك من مواد البناء. فإن تعذر وجود هذه المواد في القرية، تبرع أهل القرية بقدر من المال لشرائها من السوق وكل واحد يساهم حسب التخصص التقني، الخبرة المهنية وإما حسب القوة البدنية".[2]

–حفر البئر أو تنظيفها:

تعتبر البئر في القرية مكانا للتلاقي و تبادل أطراف الحديث والتعرف على كل جديد من أخبار.

للماء أهمية في القرى لاستمرار الحياة : فيه يُسقى المرء والدابة وتكون الحياة. وقد أولى أهل القرى أهمية لعملية تنظيف الآبار من الطين والرواسب التي قد تستمر فيها فيغير ذوق الماء فينفر منه المرء و قد يهجر المكان بحثا عن الحياة في مكان آخر.

1- المرجع السابق

2– المرجع السابق.

وقد يحدث أن يجف البئر فيعمد أهل القرية إلى البحث عن مصدر آخر للماء، فيهجرون مكانهم.لا ويشير د.مرتاض إلى وجود مهندسين تقليديين آنذاك يبحثون عنه بواسطة أغصان زيتون وقلما كانوا يخطئون.

– شق الطرقات العامة:

كانت الإدارة الفرنسية إبان استعمارها للجزائر هي التي تقوم على إدارة الطريق العمومي. غير أن" شبكة الطرقات لم تكن مرتبطة بالمدن والقرى التي كان الأوروبيون يوجدون بها في الجزائر.

وكانت الأرياف الجزائرية معزولة عن المناطق الحضرية، فيصعب التنقل إلى الأولى سيما إذا كانت الظروف الجوية قاسية. فكان أهل الريف يهمون إلى إصلاح طرقاتهم الخاصة بهم. وكان "مفهوم الطريق العام في تصورهم هو الذي يؤدي إلى المسجد أو إلى البئر"[1]. فكانوا يجتمعون بفؤوسهم ومجارفهم ويشرعون في الشق والتعبيد.

– تويزة الحرث:

أي حرث الأرض لشخص ما في القرية بحاجة إلى ذلك. والجماعة بمعنى أهل الشأن بالقرية هي التي كانت تتولى عنه تلك المؤونة مقابل خدمات أخرى يقدمها هو إلى الجماعة، وهذا إما لشيخ هرم أو لامرأة غاب عنها بعلها في سفر طويل أو توفي أو التي ليس لها أولاد يتكفلون بالمهمة.

1– نفس المرجع السابق.

–تويزة الحصاد:

تقل التوائز في موسم الحصاد و تقتصر على "أعجز العجزة وأكرم المكرمين من الناس في القرية، كحصد حقل شيخهم أو ما يسمى "بالمقدَّم" كمقابل ذلك يذبح لهم كبشا يتغذون لحمه مع الكسكسي."[1]

– ضرب النادر:

أي ضرب نوادر التبن بحيث "تدعى جماعة أهل القرية ليبكروا إلى دار فلان فيمضون إلى حيث جمع التبن تجميعا أوليا، ثم يبنى أو يضرب تحت إشراف "الرّيّس" المشهود له بالخبرة والبراعة وإلا تهدم النادر ويشتت التبن فتذروه الريح"[2]. ويتم ذلك إما في الصباح الباكر وهو الأشيع وإما في آخر النهار.

– خياطة الخيمة:

وقلما تقام هذه التويزة فيجتمع الرجال لصناعة خيمة تستخدم لتأوية الناس في الأفراح والأقراح.

كانت هذه أهم النشاطات التي يقوم بها الرجال من خلال ظاهرة التويزة.

2– التويزة النسائية:

كان لتويزة النساء دور اقتصادي كبير في المجتمع الريفي حيث تقوم النساء بنشاطات متعددة تسهم بها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولعل أبرزها:

1– نفس المرجع السابق

2– المرجع السابق

– تويزة تنقية القمح:

تقوم النساء بتنقية القمح من كل ما يمكن أن يعلق به، ثم يغسلنه ويقمن بتجفيفه تحت أشعة الشمس، ثم يهيأنه للطحن. وهناك "تعمد النساء إلى نخله مرتين اثنتين، مرة بالمنجل الواسع الخصاص ومرة أخرى بمنجل آخر ذي خصاص رقيق من مادة معدنية وهكذا يصفى الدقيق".[1]

–غسل القمح:

بعدما يجمع القمح يتم غسله وتجفيفه قبل تقديمه للطحن سواء بالرحى اليدوية أم بالرحى الميكانيكية.

ويتم غسله في أماكن الإقامة. فهو لا يحتاج إلى كثير من الماء كما لا يكلف عناء نقله.

– حصد المرمز وتبخيره وتجفيفه:

المرمز هو فريك الشعير. وكانت النساء هن اللواتي يحصدنه قبل أن ييبس، وذلك لانهماك الرجال في نشاطات أشقّ. فكانت النساء "يجتمعن ليحصدنه، ثم ينقلنه إلى باحة الدار حيث يربطنه حزما حزما، ثم ينفضن حبه خبطا بالعصي حتى يتفتت، ثم بذرنه في الهواء، ثم يضعنه في مباخر، يفرشن أسفلها بورق الدباب أو النعنع البري، ثم يجففنه تحت أشعة الشمس، ثم بعد ذلك يفركنه بأرجلهن الحامية داخل قفة منسوجة من الحلفاء وهنالك يطحنّه في الرحي اليدوية."[2]

1– المرجع السابق.

2– المرجع السابق

– تفريك الزيتون:

يعني "تفليح الزيتون هو شق حباته الناضجة بسكين يمررنه على حبة الزيتون عموديا فيجرحنها ثلاث جرحات حتى يبلغن عجمة الحبة"[1]. ويتم ذلك في فصل الخريف حيث تتعاون القريبات أو الجارات على تلك العملية بحيث يتجاوز التفليح شق كميات هائلة.

–غسل الصوف الخام:

كانت العادة عندما تزف عروسة أن تحضر أنواع مختلفة من الألبسة التقليدية والفراش. يشتمل هذا الأخير على لحف، ستائر، وسائد وبطانيات. تتكون "هاتان الأخيرتان من مادة الصوف، وبذلك فهي عرضة للأوساخ. فتنقّى وتغسل عدة مرات بكميات كبيرة من الماء. يتعذر على أم العروس أن تقوم بذلك بنفسها، فتطلب من جاراتها وقريباتها أن "يتوزن" معها.

فهن يتوجهن في العادة إلى بئر القرية أو نهرها للقيام بتلك العملية، ثم يقمن بتجفيف الصوف تحت أشعة الشمس، ثم يشكلن منها ما يشأن من أفرشة للعروس".[2]

– غسل الملابس والفُرُش:

بعد مرور مناسبات السراء أو الضراء على حد سواء، تهمّ ربة البيت إلى غسل الملابس والفرش التي اتسخت بعد مرور هذه المناسبة. فنظرا لكثرة الملابس والفرش، يتعذر عليها القيام بهذا لوحدها فتطلب من مقرباتها أن يساعدنها في ذلك.

1– المرجع السابق

2– المرجع السابق

-فتل الكسكسي:

يتم دعوة بعض النساء لفتل الكسكسي عادة في حالتين اثنتين:

"لدى وشاكة إقامة زفاف وإما لدى دنوّ شهر رمضان، حتى يتفرّغن بحلول إحدى المناسبتين إلى أعمال ونشاطات أخرى"[1].

-عجن الخبز:

كانت العادة عند إقامة وليمة عرس أن يُطلب من "بعض النساء المعروفات بلياقتهن البدنية وقدرتهن على الاحتمال أن يقمن بعجن الخبز حتى يُقدم في الوليمة. فيقمن مع السحر ليعجن خبزهن حتى يقدم لدى الفطور والعشاء."[2] وكان ذلك بالتأكيد قبل ظهور المخابز وانتشارها المكثف.

- فتل المقطفة:

"المقطفة" هي عجين مفتول بعناية ورقّة. فتدعو ربة البيت قريباتها أو جاراتها لتفتلن لها المقطفة جماعيا فيدوم ذلك النهار كله وجزءا من الليل. في القديم، "كان يصادف ذلك العيد السنوي الفلاحي في الجزائر وهو عيد يناير ولكن كذلك باقتراب شهر رمضان. فكن يمضين الليالي ساهرات في فتل هذا العجين الذي كن يقطعنه حبالا حبالا ثم تأخذ كل واحدة منهن حبلا لتمرره بين أصابعها في خفّة وبراعة ليشكلن قطعا صغيرة يتم تجفيفها. والحقيقة أن هذه التويزة تكاد تختفي إذ حلت محلها الشربة المصنعة."[3]

نفس العملية تتم لتحضير "ترشته" أو "القريطات" أو "بوفتاتة" أو "المحمصة"، وكلها عجائن يتمّ فتلها حسب أشكال مختلفة.

1- نفس المرجع السابق

2- نفس المرجع السابق

3- نفس المرجع السابق.

-تويزة "كسيرة الظفر":

تشيع هذه التويزة في الشرق الجزائري حيث تقوم النساء المجتمعات بعجن الكسيرة ثم يقمن بنضجها ثم تُقسم إلى قطع يفرغ عليها عليها المرق.

-تويزة الطحن:

كان طحن الحبوب إلى "ما بُعيد الحرب العالمية الثانية في الأرياف الجزائرية يعوّل أساسا على الرحى اليدوية التي كانت تُدار من طرف النساء. وكانت تدوم هذه العملية أسبوعا، ليلا ونهارا، وتشترك امرأتان اثنتان منهن في إدارة قطب الرحى الأعلى المغروس فيه مقبض خشبي ليّن، وذلك حتى يكون أخف لإدارتها. وهذه العملية لا يمكن أن تتم إلا بتضامن عدة نساء للقيام بها."[1] ثم ظهرت الرحى الميكانيكية كما عمت المخابز الآلية مما أدى إلى زوال هذه التويزة تدريجيا.

-تويزة الغزل والنسج:

تتمثل هذه التويزة في "نسج جلباب أو بطانية أو برنس أو حائك أو زربية وكانت تعتبر من النشاطات التقليدية النسوية التي تدل على الخبرة والذوق بما تتطلب من تجانس الناسجة فيما بين خيوط مختلفة الألوان والأحجام والأطوال.

وتستخدم لذاك أربع مواد: الصوف، الوبر، الشعر والحلفاء."[2]

فكانت النساء يتضامنّ على نسجها جماعيا لأن ربة البيت لا يمكن أن تقوم بذلك لوحدها سيما عند حلول فصل الشتاء.

هذا، فيما يتعلق بتويزة النساء بالجزائر.

1- نفس المرجع السابق

2- نفس المرجع السابق

- وظائف التويزة:

ما يجدر الإشارة إليه، هو أن كل هذه النماذج من مظاهر التويزة بالجزائر كانت تتم موسميا سواء في الأفراح أو الأقراح.

وكانت تقسم حسب طبيعة النشاط إما على الرجال أو على النساء، مبدؤها الأساسي تضامن الجماعة لصالح فرد ينتمي إليها.

وكانت تتم مرفوقة بمجموعة من الطقوس الأزلية. تتم النشاطات في جو تضامني احتفالي حيث تُقص الحكايات، يتبادل أطراف الحديث، تسمع الأغاني والمواويل، يحضر الشاي مع فطيرة ليقسم على المتضامنين في هذا النشاط أو ذاك، وحتى أنه حسب تبعا لمن تُقدَّم له الخدمة، فإما يُذبح كبش أو يُحضر الكسكسي لكل المشاركين.

فتؤدى الخدمة للفرد المعني، يعم الفرح والكل راض عن عمله.

كشكل التضامن التقليدي، كانت التويزة وسيلة للتعاون وفضاء لتبادل الأفكار والمعلومات بين أفراد المجموعة، يتم فيها اللقاء. وهي بذلك تسهم في تقوية الروابط الاجتماعية، يتعلم من خلالها الأفراد قواعد التعايش والترابط فيتنازلون عن فردانيتهم آنذاك وأنانيتهم من أجل الصالح العام.

فالضمير الجمعي يملي عليهم تصرفاتهم ويحددها، فيكون المبدأ هو التكافل والتضامن الاجتماعي.

ثم إنه بفعل هذه النشاطات، يتعلم الفرد المنتمي إلى الجماعة السلوك الجمعي من خلال نسق ثقافي يتبناه لا شعوريا، أي من خلال مجموع رموز، قيم ومعايير خاصة.

يرى Parsons أنه "لكل نسق ثقافي مستلزمات وظيفية: الاستقرار المعياري، الاندماج والتكامل، تحقيق الأهداف و التكيّف."[1]

وعليه، فإن كل نسق وهنا كنموذج التويزة يقوم بوظيفة ثبات المعايير التي تمتثل لها الجماعة. كما تؤدي وظيفة الاندماج والتكامل، بمعنى حركة الفرد باتجاه الجماعة حتى لا يُهمَّش وذلك بفضل تضامنه مع أفرادها من خلال جملة من النشاطات المتكاملة بينهم.

فكل فرد يودي نشاطا ما داخل الجماعة، وهذه الأنشطة المتكاملة تؤدي إلى القيام بالتويزة على أتمّ وجه.

أما فيما يخص الوظيفة الثالثة والمتمثلة في تحقيق الأهداف، فتترسخ التويزة بفضل أدوات يستخدمها الأفراد القائمين بذلك النشاط لتحقيق الإشباع، وهنا يتعلق الأمر بتأدية النشاط للفرد المعني بشكل جيد.

وفي الأخير، تعني وظيفة التكيف بالنسبة للتويزة أي أن يتكيف الأفراد مع بيئتهم، ولا يتم ذلك إلا من خلال بنى موجودة و أدوار تحدد لكل واحد منهم.

وبذلك، تكون التويزة قد حققت هذه الوظائف من خلال مجموعة من القيم والمعايير:

- اجتماع الأفراد المنتمين إلى الجماعة واستمرارية الروابط الاجتماعية.
- التكافل والتلاحم الاجتماعي
- ضمان استمرارية بعض القيم في المجتمع كالتعاون، الإيثار والتضامن

ويمكن تفسير هذه الظاهرة بالاستناد على مفهوم **الهابيتوس (Habitus)**.

يلعب مفهوم الهابيتوس دورا مركزيا في أعمال Pierre Bourdieu ومعالجته للظواهر السوسيولوجية. فهو بالنسبة له "نظام الاستعدادات والتصوّرات، نظام يسمح

1- عبد الغني عماد، **سوسيولوجيا الثقافة**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص.96

بخلق استراتيجيات ومواقف"،[1] يمكّن الأفراد من تحديد توجهاتهم وأذواقهم. ويتّم من خلال هذه العملية الوصول إلى"توافق بين أنظمة الاستعدادات والبنى المعرفية، وأنظمة الحياة الاجتماعية للأفراد، تُترجم بتصرّفات معيّنة وكأنظمة للحقيقة الخارجية".[2] وبذلك، "يعتبره ميلا أو توجها أو نزوعا، مجموعة استعدادات دائمة وقابلة للنقل."[3]

ويواصل Bourdieu في هذا التحليل ليُدمج "عامل التاريخ في العلاقة بين نظام الاستعدادات والتصورات الموضوعية من خلال اعتباره أن هذه العلاقة تخضع لنظام تاريخي زمنيّ".[4]

بمعنى أن الفكر البشري هو حوصلة تاريخية لما يمرّ به أفراد المجتمع من أحداث هامة تحدّد مسارهم في المستقبل، توجهاتهم وأذْواقهم. بذلك، تُرجعنا نظرية الأبيتوس "إلى نموذجي متناقضين للفعل. من جهة، الحتمية التي تشمل أفعالنا في إطار الإكراهات المفروضة علينا. ومن جهة أخرى، التصور الواهم لفرد مستقل، حرّ وعقلاني".[5]

فالفرد نتاج البيئة التي عاش وترعرع فيها، ويخضع للضغوطات التي تمارسها عليه، فيتماشى مع النسق الثقافي الذي تمليه، حتّى وإن بدا أنه مستقل وحرّ في أفعاله.

1-المرجع السابق، ص103.

2-نفس المرجع السابق، ص.ص 103-104

3- نفس المرجع السابق، ص178.

4 – نفس المرجع السابق، ص104.

5- Collectif, **Pierre Bourdieu, son œuvre, son héritage**, France, Sciences Humaines Editions, 2008, p.12

وعند تعوّد أفراد المجتمعات المحلية على مظاهر التويزة، فإنهم قد ورثوا ذلك الشغف لمظاهرها فقاموا بإعادة إنتاجها والتزموا بالمداومة عليها من خلال نسق من القيم المتوارثة.

تعتبر **القيم (Valeurs)** "مقاييس يستخدمها الناس لتنظيم وترتيب رغباتهم المتنوّعة، سواء أكان موضوع الرّغبة ماديا، أو علاقة اجتماعية، أو أفكارا عامة، أو شيئا يتطلّبه ويطلبه المجتمع. وهي تعمل على ضبط سلوك الأفراد في تعاملهم مع بعضهم البعض".[1]

كما تُعتبر "صفات الموضوعات والظواهر المادية للوعي الاجتماعي، التي تميّز أهميتها للمجتمع، ولطبقة ما ولإنسان ما. ويخلق المجتمع نسقا من المفاهيم الأخلاقية، أي المُثُل العليا لكي يُوجّه سلوك الإنسان".[2]

فهي "الأساس الضمني لأيّ نموذج ثقافي، وهي تحتوي معايير للسلوك ذات صفة مميّزة، كحالة قواعد اللّياقات وأصول الآداب، والقواعد التي تنظّم الطّقوس والشعائر وكثيرا من المعايير التي تقود أفعالنا".[3]

ويُكتسب هذا النسق القيمي من خلال تعلّم الأفراد عبر التنشئة الاجتماعية للقواعد التي يجب الامتثال لها في حياتهم.

وبذلك، فهذه القيم مكتسبة، يتعلّمها الأفراد عبر مراحل حياتهم المختلفة.

تحدّد "كلّ جماعة مجموعة من القوانين، أي قواعد نوعا ما واضحة تسيّرها، والمسمّاة بالمعايير".[4]

1- حسين عبد الحميد رشوان، **الثقافة**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، بدون سنة، ص160.

2- برهان غليون، سمير أمين، **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**، سوريا، دار الفكر، 1999، ص234.

3- عبد الغني عماد، مرجع سبق ذكره، ص140.

4- Jean Golfin, **Les 50 mots-clés de la sociologie**, France, Edouart Privat Editeur, 1972, p89.

كما يعرّفها Durkheim على أنّها "طرق للتصرّف، للوجود والتفكير، محدّدة اجتماعيا ومُتّفق عليها. وهي تقوم بتوجيه نشاطات الأفراد بمنْحهم جُملة من المراجع النموذجية، وفي نفس الوقت مجموعة من الرّموز للمُماثلة، التي تساعدهم على تحْديد التّوجّه الذي له علاقة بهذا النموذج".[1]

ولا يتمّ تعلم ذلك إلا من خلال ما يسمّيه Durkheim **بالضمير الجمعي** حيث يعرّفه في كتابه: "تقسيم العمل الاجتماعي بأنّه "مجموعة المعتقدات والأحاسيس المشتركة بين أفراد المجتمع، وتكوّن هذه المجموعة نسقا له حياته الخاصة[...] ولا يتغيّر هذا الوعي في كلّ جيل، ولكنّه يربط الأجيال المتعاقبة مع بعضها البعض."[2]

وبذلك، يكون **الوعي** لدى Durkheim ذلك النسق الذي يضمّ المعتقدات والأحاسيس المشتركة. وهذه الأخيرة تكوّن قوّة الجماعة التي ينْتمي إليها الأفراد. ويكون هذا الوعي الجمعي مُنتشرا بفعالية أكبر في المجتمعات التي يسود فيها التضامن الميكانيكي.

وهذا الوعي الجمعي هو الذي يؤدي إلى القيام بالنشاطات المتعلقة بالتويزة ويؤدي إلى المحافظة على هوية الجماعة وملامحها.

ويذهب Jean-Pierre Warnier إلى تحديد مفهوم **الهوية** على أنّها "مجموع بيانات للفعل (Action)، للّغة وللثقافة تُمكّن الفرد من التعرّف على انتمائه لمجموعة اجتماعية والتمثّل لها".[3] إذاً، تتطلب الهوية وجود أفراد ينتمون إلى مجموعة اجتماعية

1- R.Boudon, F.Bourricaud, **Dictionnaire critique de sociologie**, Paris, PUF, 1982, p.417

2- Raymond Aron, **Les étapes de la pensée sociologique**, France, Gallimard, 1967, p. 322

3- Jean –Pierre Warnier, **La Mondialisation de la Culture**, Paris, La Découverte, 1999, p.09

ما، تربط بينهم سمات مُشتركة يتقاسمونها، ليقوموا بمجموعة من الأفعال، داخل نظام رمزيّ معيّن.

عمليّا، تعني الهوية ذلك التشابه الذي يشعر به الفرد مع بقية أفراد الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي تميزه عن الجماعات الأخرى، فيتقاسم معهم مجموعة من الرموز والصّفات المشتركة والمتعارف عليها والتي تؤدي في آخر المطاف إلى تلاحم وتماسك أفراد الجماعة.

في علم النفس الاجتماعي، يَنتُج **التماسك** عن "الانجذاب المتبادل، أو عن التّكامل بين الأفراد الذين ينتمون لنفس الجماعة، في منظومة من الأهداف، الفعْل، المعايير، وأحيانا للأصْل أو الإخلاص لنفس الزعيم."[1]

وهذه المفاهيم مجتمعة هي التي تفسر استمرار التويزة لوقت طويل.

لكن الملاحظ أن التويزة كما عرضناها سالفا قد اختفت أشكالها واضمحلت.

وهنا السؤال يطرح نفسه: لماذا اختفت أشكال التويزة بالجزائر؟

-أسباب زوال التويزة:

رغم كل الوظائف التي أدتها التويزة في القديم، إلا أنها تكاد تنعدم في الوقت الراهن.

استنادا إلى النظرية الدوركايمية، يرجع السبب الأول إلى زوال التويزة إلى "توسع المحيط الاجتماعي، كلما لم يعد المجتمع يحيط بالفرد كما ذي قبل، تاركا بذلك المكان لتغيرية (variabilité) الأفراد.[2]

1- Madeleine Grawitz, **Lexique des Sciences Sociales**, Paris, Dalloz, 7eme édition, 1999, p.69

2 - José A.Prades, **Durkheim**, op.cit., p.46

وبذلك، لم تعد الأحاسيس جماعية، فأصبح كل فرد يهتم بحاله فقط ولا يهمه الآخرون.

في المجتمع الحديث، تغيرت الأهداف والأولويات. فالابتعاد عن التويزة يعني تراجع ما يسميه Durkheim بالضمير الجمعي وظهور الفردانية.

وعند استجوابنا لمجموعة من الأفراد، أرجع المبحوثون أسباب زوال التويزة لعدة عوامل:

- ظهور المجتمع الحديث و ما يفرضه من تخصص في المهن وتقسيم في العمل
- توسع المدن وابتعاد الناس عند بعضهم البعض
- ظهور وسائل الإعلام والاتصال وانتشارها في المجتمع الجزائري

أدى ظهور المجتمع الحديث إلى ظهور مهن متخصصة ولم يعد الأفراد بحاجة إلى بعضهم البعض لتأديتها.

كما ظهرت مؤسسات وبنى تقوم بتلك النشاطات (مصانع، مخابز وحاليا حتى بعض النساء المتخصصات في صنع الحلويات والعجائن في منازلهن ...)

أما لبناء بئر أو تعبيد الطريق مثلا، تتدخل الحكومة في الوقت الراهن بإمكانيتها للقيام بذلك. لتحضير الشوربة أو الكسكسي، فإننا نجد هاتين المادتين جاهزتين في المحلات.

ثم أن تَوَسُّعَ المدن أدى إلى ابتعاد الناس الذي يعرفون بعضهم البعض.

فالصلات والروابط الاجتماعية التي كانت موجودة من ذي قبل، زالت بفعل التوسع وحجم المدينة الكبير.

أضف إلى ذلك، أن ظهور وسائل الإعلام والاتصال أدى إلى اختفاء أشكال التعبير التقليدية من "تحواف" (كنوع شعري غنائي تردده النساء في إيقاع بطيئ) وأمثال وحكم وألغاز شعبية وشعر ملحون. فلم يعد يجتمع الأفراد حولها ليختفي ذلك الجو الجماعي التضامني الذي كان يربطهم ببعضهم البعض.

ولم يعد الأفراد يتصلون ويتواصلون كما كان الحال قديما لأنهم أصبحوا يهتمون بمحتوى ما تعرضه وسائل الإعلام والاتصال من معلومات وبرامج ترفيهية أكثر من اهتمامهم بزيارة بعضهم البعض.

خاتمة:

حتى وإن مازالت بعض مظاهر التويزة موجودة في الوقت الراهن، إلا أنها محتشمة، وكل نشاط –مهما كان ناذرا– يقام في هذا الإطار لم يعد يجمع سوى بعض الأقارب وفي مناسبات خاصة واستثنائية، ولم يعد يخص سوى بعض العائلات القليلة، إلى درجة أنه عند استجوابنا لبعض المبحوثين الشباب، تعجبنا بأن الكثير منهم لا يعرف حتى معنى التويزة ولم يسمع عنها قط.

وفي الأخير، تعتبر هذه الدراسة مساهمة متواضعة لفهم المجتمع، فهم ميكانيزماته، أسباب وجود بعض الظواهر وأسباب زوالها، فهم للآليات التي تحركه وتغيره، النسق الثقافي الذي كانت تتبناه، القيم التي سادت إلى وقت ما والقيم الجديدة التي حلت مكان الأولى والتي ما هي إلا نتاج طبيعي للتغيرات التي عرفها المجتمع الجزائري والتي تمخضت عن التصنيع والنمو الحضري.

قائمة المراجع:

– باللغة العربية:

– رشوان حسين عبد الحميد، **الثقافة**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، بدون سنة.

– عماد عبد الغني، **سوسيولوجيا الثقافة**، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.

– غليون برهان، سمير أمين، **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**، سوريا، دار الفكر، 1999.

– مرتاض عبد الملك، **التويزة وأبعادها الاجتماعية في الريف الجزائري**، بيروت، المؤتمر الثاني للثقافة الشعبية اللبنانية–العربية، 1999.

– يوسف سوزان السعيد، **التراث الشعبي والهوية**، بيروت، المؤتمر الثاني للثقافة الشعبية اللبنانية–العربية، 1999.

– باللغة الفرنسية:

- Aron Raymond, **Les étapes de la pensée sociologique**, France, Gallimard, 1967
- Boudon Raymond, Bourricaud François**, Dictionnaire critique de sociologie,** Paris, PUF, 1982
- Boudon Raymond, **Etudes sur les sociologues classiques**, Paris, Presses Universitaires de France, 1998
-Collectif, **Pierre Bourdieu, son œuvre, son héritage**, France, Sciences Humaines Editions, 2008
-Coordonné par Philippe Cabin et Jean-François Dortier, **La sociologie, histoire et idées**, France, Editions Sciences Humaines, 2000
- Golfin Jean, **Les 50 mots-clés de la sociologie**, France, Edouart Privat Editeur, 1972
- Grawitz Madeleine, **Lexique des Sciences Sociales**, Paris, Dalloz, 7eme édition, 1999
- Gurvitch Georges, **La vocation actuelle de la sociologie**, France, PUF, 4eme édition
- Prades José A., **Durkheim,** France, PUF, 1990

- Warnier Jean –Pierre, **La Mondialisation de la Culture**, Paris, La Découverte, 1999.